أبو علي الحاتمي و الوحدة في العمل الشعري بين القدماء والمحدثين

للأستاذ وصفي علي حرب

١ قضية الوحدة في العمل الشعري قضية على جانب كبير من الأهمية ، لأنها تعالج ناحية من أهم نواحي الصياغة والفنية في الشعر ، هذه الناحية التي شغلت النقاد القدماء ، كما أنها ما تزال تشغل النقد والنقاد في هذا العصر الحديث .

ويرى أكثر نقاد هذا العصر أن نظرة النقاد العرب القدماء إلى موضوع الوحدة في العمل الشعري إنما كانت تتجه نحو « وحدة البيت » لا وحدة القصيدة .

ومعنى وحدة البيت : استقلاله بمعناه وقيامه بنفسه من غير احتياج إلى ما سبقه وما يأتي بعده من الأبيات ، وقد بنوا هذا الاعتقاد على حقيقتين اثنتين ، أولاهما : ما هدتهم إليه نظراتهم الخاصة في مجمل الشعر العربي القديم الذي وصل إلينا ، وبروز هذه السمة فيه . والحقيقة الثانية : بعض الأقوال والآراء التي تناقلتها الكتب عن بعض النقاد القدماء ، أمثال قدامة بن جعفر ، وأبي هلال العسكري ، وابن رشيق القيرواني وغيرهم من النقاد المتقدمين والمتأخرين .

والذي يؤسف له أن من النقاد المعاصرين من ذهب إلى التعميم باتهام أولئك النقاد القدماء ، بعدم فهمهم لموضوع الوحدة في العمل الشعري ، أو الوحدة الفنية في القصيدة .

ونحن إذ نسلم باتجاه أكثر النقاد العرب إلى مقياس الشعر بمقياس وحدة البيت في القصيدة الواحدة على وحدة العمل الشعري كله ، فإننا لا نميل إلى تحميل النقاد القدماء بعامتهم مسؤولية ذلك ، بل نبادر بالقول ؛ إن من أولئك النقاد القدماء من كان أسبق بآرائه حول هذا الموضوع من نقاد العصر الحديث .

قديما تحدث قدامة بن جعفر عن عيب من عيوب الإئتلاف سماه « المبتور » وهو : أن يطول المعنى عن أن يحتمل العروض تمامه في بيت واحد ، فيقطعه بالقافية ، ويتمه في البيت الثاني ، ومثّل لذلك بقول عروة بن الورد :

فلو كاليوم كان عليّ أمري   ومن لك بالتدبر في الأمور

فهذا البيت ـ كما قال ـ ليس قائما بنفسه في المعنى ، ولكن أتى بالبيت الثاني بتمامه فقال :

إذاً لملكت عصمة أم وهب   على ماكان من حسك الصدور(٢)

ولا شك أن في بيتي عروة المذكورين نوعا من الاتصال والتماسك ، ولكن قدامة لا يعجبه هذا الاتصال بينهما فيجعله مما يعاب به الشعر والشاعر . ولم يكن قدامة منفردا في هذا الموقف ، إذ نجد من البلاغيين والنقاد من تابعه في هذا الرأي ، كما هو الحال عند أبي هلال العسكري ، الذي وقف من موضوع الوحدة موقف قدامة فجعل وحدة البيت مقياساً للوحدة . وعدّ احتياج البيت إلى ما بعده ليكمل معناه عيبا من العيوب التي ينبغي أن يتجنبها الشاعر ، وسمى ذلك العيب « التضمين » وهو : أن يكون البيت

الأول محتاجا إلى الأخير ، كقول الشاعر :

كأن القلب ليلة قيل يغدي بليلى العامريّة أو يُراح
قطاة غرّها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فلم يتم المعنى في البيت الأول حتى أتمه في البيت الثاني ، وهو قبيح .(٣)

وإن كنا بدأنا بموقف قدامة وأبي هلال من موضوع الوحدة ، فلأنهما عالمان متخصصان في النقد الأدبي ، وفي الحقيقة ، فقد سبقهما إلى تقرير هذا الرأي الخليل ابن أحمد الفراهيدي الذي عد احتياج البيت إلى ما قبله وما بعده ليتم معناه عيبا من عيوب الشعر سماه « المعاظلة » ومثل له بقول النابغة الذبياني :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدت لهم مواطن صادقات شهدن لهم بحسن الظن مني

وقد نظر في تسمية هذا العيب بالمعاظلة إلى المعنى اللغوي لهذه الكلمة ، وهو التداخل والتراكب والنشوب ، فكأن البيت الأول من هذين البيتين متعلق أشد تعلق بالبيت الذي يليه . فقد قطع القافية على « إني » وجاء بخبر إن في مطلع البيت التالي(٤) .

وإن كانت هذه النظرة هي الغالبة لدى النقاد القدماء فإن منهم من اتجه اتجاهاً آخر في مفهوم « الوحدة » . وإن كنا نجد من بين النقاد والقدماء من يميل إلى تفضيل وحدة البيت على وحدة القصيدة ، كما رأينا عند قدامة وأبي هلال ، وكما سنرى عند ابن رشيق عما قليل ، فإننا إلى جانب ذلك نجد نظرة أخرى تتجه إلى تحقيق نوع من ائتلاف القصيدة وتماسكها ، ولكن من خلال تعدد أجزائها وموضوعاتها ، ونجد من النقاد القدماء ، من يطالب بتحقيق هذا التلاحم بين أجزاء القصيدة الواحدة إلى جانب وحدة أجزاء البيت الواحد منها ، فتركز مفهومهم لوحدة العمل الشعري على الربط بين أجزائه وأغراضه المختلفة ، أو حُسن الوصل بين أقسامه ، بحيث لا يبدو الانتقال من غرض إلى آخر مفاجئا أو مبتور الصلة عما قبله وبعده ، وحتى تبدو القصيدة متماسكة مترابطة كأنها الجسد الواحد ، أو الخطبة البليغة والرسالة المسبوكة المحكمة .

وكان منهج القصيدة العربية القديمة في الغالب أن تستهلّ بالأطلال فالنسيب فوصف الرحلة والراحلة وما في ذلك من متاعب ومشاق ، ثم المدح إن كانت القصيدة مدحاً ، أو الغرض الرئيسي التي قيلت من أجله . والشاعر المجوّد ـ عند ابن قتيبة ـ من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ، ولم

يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد .⁽⁵⁾

وكان مذهب الفحول الأوائل من الشعراء في قصائدهم هو الانتقال المفاجئ من غرض إلى غرض ، كأن يقول (دع ذا) أو (عدّ عما ترى) أو (عدّ عن كذا) وما شابه ذلك من عبارات . ولا شك أن مثل هذا الانتقال يقطع أوصال القصيدة ، ويبعثر أجزاءها ، ويظهرها بشكل تبدو معه وكأنها قِطع أو نتف من الأبيات ضمت إلى بعضها البعض دون أدنى علاقة أو مناسبة فنية بينها .

ولم يرض كثير من النقاد العرب عن هذا الانتقال المفاجئ من موضوع إلى موضوع في العمل الشعري ، وعن هذا التفكك بين أجزاء القصيدة . فأجود الشعر عند الجاحظ ما كان « متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا ، وسُبك سبكا واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان » .⁽⁶⁾

فإذا وصلنا إلى أبي علي الحاتمي وهو أحد أعلام البلاغة والنقد في القرن الرابع الهجري فسنجد عنده أفكاراً صريحة تتحدث عن وحدة العمل الشعري ، وهذا صريح عبارته في فهمه لمعنى الوحدة وضرورة توافرها في الأعمال الشعرية : (ومن سبيل الشاعر أن يتحرى لقصيدته أحسن الابتداء ، كما يتحرى لها أحسن الانتهاء عند بلوغ حاجته ، وأن يجعل افتتاح كلامه أحسن ما يستطيعه لفظا ومعنى . وأن يبتدئ قصيدته بما شاكل المعنى الذي قصد له . فإن أبا نواس لو كان معاتبا **بقوله :**

أربع البلى إن الخشوع لبادي عليك وإني لم أخنك ودادي

أو مستبطئاً ، لم يُستَهْجَن ابتداؤه هذا ... لأن كل صنف من صنوف القول يقتضي نوعا من أنواع الابتداء ، وضربا من ضروب الاستفتاح لا يصلح لغيره ... فينبغي للمادح المستميح أن يفتتح شعره بما يكون دالاً على غرضه ومشيرا إلى مراده .⁽⁷⁾

ويوقفنا هذا الكلام على رأي الحاتمي في وحدة الغرض أو وحدة الموضوع بصراحة ، فإذا أمعنا النظر في هذا الكلام استطعنا أن نفيد منه الحقائق التالية :

١ ـ أن للقصيدة بداية ونهاية ، وبين البداية والنهاية ما يبلغ به الشاعر حاجته ، وهذا يعني أن لها مقدمة وعرضاً وخاتمة .

٢ ـ أن تكون القصيدة كلها على نسق واحد في جودة اللفظ والمعنى .

٣ ـ أن لكل كلام افتتاحا يناسبه ولا يصلح لغيره ، فافتتاح المدح غير افتتاح العتاب ، وافتتاح العتاب غير افتتاح الاستبطاء ... الخ .

٤ ـ أن يكون أول الكلام منبئاً عن غرض القائل مشيراً إلى مراده ، ومعنى ذلك أن تكون القصيدة مختصة بغرض واحد أو بموضوع واحد منذ أول بيت منها ، بحيث يكون هذا البيت مقدمة للقصيدة ، مشيرا إلى مراد الشاعر فيها ، دالاً على غرضه منها وذلك يعني أن يكون الابتداء غير خارج في غرضه ومعناه عن سائر القصيدة ، وهذا يستلزم بالضرورة ترك الاستهلال بالأطلال أو النسيب أو ما شابههما مما لا علاقة له بموضوع القصيدة .

٥ ـ أن الحاتمي قد خصّ بكلامه قصيدة المدح . ويبدو لنا أن هذا التخصيص إنما كان على سبيل التمثيل ، وسبب ذلك غلبة هذا النوع على الشعر العربي ، ومع ذلك نجده يقف هذا الموقف من قصيدة الرثاء أيضا ، فيقول : إن من أحسن ما ابتدأ به شاعر قصيدته ، ونطق به على المذهب الذي ذهب إليه منها ، فأشعر بمراده في أول بيت منها ، أوس بن حجر في مرثيته :

أيتها النـفس أجملي جزعـا   إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع الشجاعة والنجد   ة والحزم والنـدى جُمعـا
الألمعيّ الذي يظن بك الظن   كأن قد رأى وقد سمعـا(٨)

ثم قال ـ أعني الحاتمي ـ إن ممن يجري وأوس بن حجر في مضمار واحد من المحدثين أبا تمام في قوله مبتدئا مرثيّة :

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمعا   وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا(٩)

فعلى الشاعر إذن أن يبتدئ قصيدته بما يدل على غرضه منها ، وأن يتناول موضوعه مصافحة من غير أن يقدم له بشيءمن المقدمات التقليدية المعهودة في القصيدة العربية .

ولا شك أن اختصاص القصيدة بغرض أو بموضوع واحد يؤدي إلى خلوصها من الأفكار المختلفة التي لا علاقة لها بالموضوع والتي لا تخدم الغرض الأساسي ، وبالتالي تخلصها من الاستطرادات المعروفة التي تدل على تعدد أفكار الشاعر وتنقلها .

وذلك يستدعي بالضرورة كفّ النقاد عن الخوض فيما يسمونه الخروج أو التخلّص من غرض إلى آخر ، كالخروج من بكاء الأطلال إلى النسيب ، ومن النسيب إلى وصف الرحلة أو إلى غير ذلك ثم الغرض الرئيسي من القصيدة ، ويجعلهم يبحثون عن حُسن الربط بين الأفكار الجزئية وعن تسلسل هذه الأفكار وصولا إلى الفكرة الرئيسة في القصيدة ، بمعنى ان يؤدي البيت الأول الذي هو بمثابة المقدمة ـ لأنه يشير إلى الغرض

مجرد إشارة – إلى حاجة الشاعر أو غايته ، فإذا بلغ هذه الغاية ختم قصيدته بخاتمة حسنة .

على أن تعبيرات الحاتمي في أجزاء القصيدة تماثل رأي أرسطو في ترتيب الأجزاء في حديثه عن وحدة الفعل في الملحمة والمأساة ، فهو يرى أنه ينبغي أن يكون للفعل بداية ووسط ونهاية ، لأنه إذا كان واحدا وتاماً كالكائن الحيّ أنتج اللذة الخاصة به .(١٠)

ولا يخفى أن الحاتمي قد فهم معنى الوحدة عند أرسطو فهما صحيحا ، وربما انفرد بهذا الفهم من دون سائر النقاد العرب حتى عصره . فهو يريد للقصيدة أن تكون كلاً متماسكاً ، ولهذا الكل أجزاء هي الابتداء والوسط أو ما يبلغ به الشاعر حاجته بحسب تعبيره ، ثم بعد ذلك الخاتمة أو الانتهاء .

والقول عند الحاتمي ينبغي أن يكون متجانساً أيضاً ، والأفكار متناسبة تدور حول غرض واحد منذ المقدمة حتى الخاتمة . فليس من المستحسن أن يقول الشاعر قصيدة في المدح مثلا فيبدؤه بشيء لا يناسب هذا الغرض ، كالبدء بما يشاكل العتاب أو الاستبطاء أو غير ذلك من أغراض الشعر .

وحديث الحاتمي عن الغرض الواحد في القصيدة وعن ترتيب أجزائها ينبهنا إلى نوع هذه الوحدة فهي الوحدة الكاملة .

وفي تمسك الحاتمي بهذه الوحدة نقض لمنهج القصيدة العربية القديمة بتعدد أغراضها وموضوعاتها . ولم نسمع بأحد قبل الحاتمي طالب بالخروج عن هذا المنهج المتوارث في القصيدة العربية ، وإن كان هناك من الشعراء من خرج على هذا المنهج بعض الشيء .

وقد كانت مطالبة الحاتمي بالخروج على هذا المنهج مطالبة مدروسة ومقصودة ، لأنه حاول أن يقيم في موضع آخر من كلامه نوعا من الوحدة من خلال فهمه وإقراره لهذا المنهج ، يبدو ذلك في قوله : « من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممتزجا بما بعده من مدح ، أو ذم ، أو غيرهما غير منفصل منه . فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر ، أو باينه في صحة التركيب ، غادر بالجسم عاهة تتخوّن محاسنه ، وتعفي معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعر ، وأرباب الصناعة من المحدثين محترسين من مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجّة الإحسان حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال .

ثم يقول : وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وإعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة ، والخطبة الموجزة ، لا ينفصل جزء منها عن جزء ، كقول مسلم بن الوليد وهو من بارع التخلص :

أجدّك هل تدرين أنْ رُبَّ ليلة　　كأن دجاها من قرونك ينشر
نصبت لها حتى تجلت بغرّة　　كغرّة يحيى حين يُذكر جعفر

وهذا مذهب اختص به المحدثون ، لتوقد خواطرهم ولطيف أفكارهم واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم ، فكأنه مذهب سهلوا حزنه ، ونهجوا رسمه(١١) .

ولا شك أن كلام الحاتمي هذا يعني « وحدة القصيدة » ولكنها وحدة تختلف عن الوحدة التي وقفنا عليها من قبل ، لأن الوحدة التي ينشدها هنا هي وحدة قائمة على تعدد الموضوعات .

وإذا أمعنا النظر في رأي الحاتمي هذا تبينت لنا الحقائق التالية :

١ ـ أن الرجل كان عالما بطبيعة الشعر العربي ، وتنقّل الشاعر من غرض إلى غرض في القصيدة الواحدة ، من نسيب إلى وصف إلى مديح أو غير ذلك من الأغراض ، وجلّ ما يطلبه من الشاعر الذي تتعدد الأغراض في قصائده أن يحكم وصل كل جزء من القصيدة بسائر أجزائها ، أو كل غرض بسائر ما يعرض له من الأغراض .

ولذلك تحدث الحاتمي طويلا في حسن التخلص ، وكان رأيه هذا في وحدة القصيدة أول كلام ابتدأ به الحديث عن هذا الفن .

٢ ـ أن أغراض القصيدة هي أعضاؤها التي شبهها الحاتمي بأعضاء جسد الإنسان ، ويرى ضرورة الاتصال المحكم بين كل غرض وآخر كما هو الشأن في اتصال أعضاء الجسد الواحد . وذلك كقول مسلم بن الوليد المذكور ، فإن الناظر في هذين البيتين يرى أن فيهما غرضين اثنين ، أحدهما وصف الليلة ، والآخر مدح يحيى ابن جعفر ، ولكن هنالك اتصالا متينا بين هذين الغرضين بحيث لا نجد بينهما أي نوع من الانفصال ؛ لأن الشاعر جعل من صدر البيت الثاني ما يناسب البيت الأول تمام المناسبة ، كما يناسب عجزه مناسبة وثيقة . وعلى هذا الشكل ينبغي أن يكون التلاحم والاتصال بين كل أغراض القصيدة .

٣ ـ أن الحاتمي يشترط صحة التركيب في هذه الأعضاء ، بمعنى أن لا يسبق المديح

النسيب ، وأن لا تختلط الأغراض نسيباً فمدحا فنسيباً مثلا ، لأن هذا الاختلاط وتعدد المواقع يشوّه القصيدة ، كذلك التشويه الذي يحدثه وجود أعضاء الجسم في غير مواقعها ، أو تعدد هذه الأعضاء على النحو غير المألوف .

وذلك يعني أنه ينبغي أن تكون أفكار القصيدة مرتبة ومنسقة على نسق معين لا اضطراب فيه .

٤ ـ أن تشبيه القصيدة بالرسالة المحكمة والخطبة الموجزة لا يبعدها كثيرا عن تشبيهها بجسد الإنسان ، من حيث الاتصال وصحة التركيب .

ويؤكد الحاتمي في هذه الوحدة أنه ينبغي أن تكون القصيدة متناسجة ، وأفكارها متسلسلة تقتضي أوائلها أواخرها على النحو الذي نجده في أبيات النابغة التي مثل بها الحاتمي لهذا الغرض وهي قوله :

فأسبل مني عبرة فرددتها   على النحر ، منها مستهلّ ودامع
على حين عاتبت المشيب على الصبا   وقلت : ألما أصح والشيب وازع
وقد حال منهم دون ذلك شاغل   مكان الشغاف تبتغيه الأصابع
وعيد أبي قابوس في غير كنهه   أتاني ودوني راكس فالضواجع

قال الحاتمي : هذا كلام متناسج تقتضي أوائله أواخره ، ولا يتميز منه شيء عن شيء .(١٢)

وواضح أن هذا التناسج الذي ذكره الحاتمي شبيه بما هو موجود في بيتي مسلم ابن الوليد الذي سبق ذكرهما .

ولقد سبق ابن طباطبا إلى الإشارة إلى هذه الوحدة بين أجزاء القصيدة عندما شبّه هذه الأجزاء بفصول الرسالة في قوله : فإن للقصيدة فصولا كفصول الرسائل ، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة ، فيتخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ، ومن الشكوى إلى الاستماحة ... بألطف تخلص وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متصلا به وممتزجا معه .(١٣)

وذكر ابن طباطبا في كتابه « عيار الشعر » أن أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله ، فإن قُدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقص تأليفها .(١٤)

وواضح هنا تأثر ابن طباطبا بفكرة أرسطو تأثرا واضحا ، يقول أرسطو : يجب أن يكون الفعل واحدا وتاما ، وأن تؤلف الأجزاء بحيث إذا نقل أو بُتر جزء انفرط عقد الكل وتزعزع .(١٥)

كما كان الحاتمي في تشبيه القصيدة بجسد الإنسان ، متأثراً بأرسطو الذي شبه القصيدة بالكائن الحي أيضا .(١٦)

ولم يكن الشعراء العرب المتقدمون يحرصون على تحقيق هذه الوحدة في قصائدهم ، فهذا مذهب – كما يقول الحاتمي – اختص به المحدثون ، وأما الفحول الأوائل ، ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين ، فمذهبهم المتعالم فيه : « عدّ عن كذا إلى كذا » وقصارى كل رجل منهم وصف ناقته بالعتق والكرم والنجابة والنجاء ، وأنه امتطاها وادّرع عليها جلباب ليل ، وتجاوز بها جوف تنوفة إلى الممدوح ، وهذه الطريق المهيع ، والمحجة اللهجم . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف تخلص به إلى غرضه ولم يتعمده ، إلا أن طبعه السليم ساقه إليه ، وصراطه المستقيم أضاء له مناره ، وأوقد باليفاع ناره في الشعر .(١٧)

وباستعراض آراء النقاد العرب السابقة نستطيع أن نتبين ثلاثة اتجاهات أو ثلاثة مفاهيم للوحدة :

الأول : يتجه إلى « وحدة البيت » ويمثل هذا الاتجاه قدامة بن جعفر وأبو هلال العسكري وغيرهما من علماء الشعر أمثال أبي عبيدة الذي يرى أن « أحسن تخلص للعرب تخلصت به من بكاء طلل ، ووصف إبل ، وتحمل أظعان ، وتصدع جيران ، بغير « دع ذا » و « عدّ عما ترى » و « اذكر كذا » من صدر إلى عجز ، لا يتعداه شاعر إلى سواه ، ولا يعلقه بما عداه ، قول زهير :

إن البخيل ملوم حيث كان ولكـ ـن الجواد على علاته هرم(١٨)

وهنالك من المتأخرين من يفضل وحدة البيت كابن رشيق الذي قال : « ومن الناس من يستحسن الشعر مبنياً بعضه على بعض ، وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائماً بنفسه ، لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده ، إلا في مواضع معروفة مثل الحكايات » .(١٩)

والاتجاه الثاني : وهو الاتجاه الذي يطالب بتحقيق وحدة القصيدة من خلال تعدد

موضوعاتها ، ويتزعم هذا الاتجاه أبو علي الحاتمي وابن طباطبا .

أما الاتجاه الثالث : فهو الذي ينادي بوحدة الموضوع في القصيدة ، وزعيم هذا الاتجاه هو أبو علي الحاتمي .

ونرى مما تقدم أن الحاتمي تردد بين « وحدة الموضوع » و « تعدد الموضوعات » في مفهومه لوحدة القصيدة .

وهذه القضية مازالت قائمةً إلى يومنا هذا ، تتبع خطى الحاتمي ، فإن من أعلام النقد المعاصر من يجعل قضية الموضوع الواحد عماد نظرته إلى « الوحدة الفنية » في العمل الأدبي كالأستاذ العقاد مثلا ، في حين يرى جميل صدقي الزهاوي أنه لا مانع من تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة ، تربط بينها مناسبات وإن كانت ضعيفة .(٢٠)

على أن بعض النقاد المعاصرين يتحدث عن وحدة القصيدة ويسميها (الوحدة العضوية) ويريد بها وحدة الموضوع وما يستلزمه من ترتيب الصور والأفكار .(٢١) يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى عن كلام الحاتمي في الوحدة : إنه حديث في الوحدة العضوية ، ثم يعود بعد ذلك فيسمي هذه الوحدة « الوحدة الفنية » فيكون بذلك قد خلط بين ثلاثة أنواع من الوحدة هي : الوحدة الموضوعية ، والوحدة العضوية ، والوحدة الفنية .(٢٢) ولا شك أن هناك فروقا بين هذه الأنواع . والغريب في الأمر أن هنالك من نقادنا العرب في هذا العصر من ينسب الدعوة إلى الوحدة العضوية من خلال تعدد الموضوعات إلى المدرسة الرومانتيكية باعتبارها واحدة من صيحات التجديد التي تميزت بها هذه المدرسة ، متجاهلين آراء نقادنا القدماء أمثال الحاتمي برغم اطلاعهم عليها . فنجد مثلا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى يقول : « ولا شك أن الوحدة العضوية كانت صيحة من صيحات الرومانتيكية في الدعوة إلى التجديد ، فإن القصيدة عندهم تصبح كل صورة من صورها بمثابة عضو حي في بنيتها الفنية ، وهو ما يسمى عندهم وحدة تشبه وحدة المسرحية العضوية . ويقرر أن أول من قرر ذلك (لسنج) الألماني (١٨٢٩ – ١٨٧١)(٢٣) .

كما نجد من هؤلاء النقاد من ذهب إلى أكثر من ذلك كالدكتور محمد غنيمي هلال الذي خطّأ الحاتمي بالذات مرة ،(٢٤) وكل النقاد العرب مرة أخرى في ترديدهم لكلمة الوحدة العضوية(٢٥) من حيث فهمهم لهذه الوحدة ، كما نفهمها وكما فهمها أرسطو

من قبل ، وقال : « ولم يفطن أحد منهم إلى وحدة العمل الأدبي في القصيدة على نحو ما نفهمه اليوم ، ولهذا لم يتناف بناء القصيدة الجاهلية في فهمهم مع تأليف المعاني في الوحدة العامة ... إذ فهموا معنى الوحدة هو إجادة وصل أجزاء القصيدة القديمة بعضها ببعض ، وإن لم يكن بين الأجزاء نفسها صلة .(٢٦) وأضاف « ولهذا لم تترك أثراً في النتاج الأدبي » .(٢٧)

ونحن لا نجد فرقا بين مفهوم الدكتور هلال للوحدة في العمل الأدبي وبين مفهوم أبي علي الحاتمي لهذه الوحدة ، يقول الدكتور هلال : « ونقصد بالوحدة العضوية في القصيدة : وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا تتقدم به القصيدة شيئا فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور ، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية ، لكل جزء وظيفة فيها ، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر .(٢٨)

ونلحظ في هذا النص فكرتين هما : وحدة الموضوع وما يستلزمه من تسلسل الأفكار ، وتلاحم أجزاء القصيدة ، وهاتان الفكرتان هما بعينهما فكرتا الحاتمي ، وإن كان قد عبر عن تسلسل الأفكار بقوله السابق تعليقاً على أبيات النابغة « وهذا كلام متناسج تقتضي أوائله أواخره ، ولا يتميز منه شيء عن شيء(٢٩) .

وقد يقول قائل إن المقصود هنا بأجزاء القصيدة هو أجزاء الموضوع الواحد نفسه من مقدمة وعرض وخاتمة ، وليس أجزاءها من موضوعات متعددة كالنسيب والمديح وغير ذلك ، فنقول : إذا كان الأمر كذلك فهي فكرة الحاتمي الأخرى التي يقول فيها : « من سبيل الشاعر أن يتحرى لقصيدته أحسن الابتداء ، كما يتحرى لها أحسن الانتهاء عند بلوغ حاجته ، وأن يجعل افتتاح كلامه أحسن ما يستطيعه لفظا ومعنى ، وأن يبتدئ قصيدته بما شاكل المعنى الذي قصد إليه ... وكل صنف من صنوف القول يقتضي نوعا من أنواع الابتداء أو ضربا من ضروب الاستفتاح لا يصلح لغيره ... فينبغي للمادح المستميح أن يفتتح شعره بما يكون دالا على غرضه ومشيراً إلى مراده .(٣٠)

وإذا كانت هذه هي الغاية التي يطمح إليها الدكتور هلال ، فإننا لا نرى فيها شيئاً جديداً يستحق ما قدّم من محاولة الغض من شأن النقد الأدبي عند العرب ، فإن ما ذكره لا يزيد شيئاً عما رآه الحاتمي الذي نرى هذه المقترحات صريحة في رأيه .

كما نجد في كلام الحاتمي السابق جميع العناصر التي بنى عليها الدكتور هلال فكرته ،

فهنا وحدة الموضوع التي تقتضيها دلالة البيت الأول عليه ، وهنا ابتدأ بما يشاكل الغرض ، وإن شئت قلت « مقدمة » وهنا انتهاء حسن أو « خاتمة » وبين المقدمة والخاتمة ما يبلغ به الشاعر حاجته .

وهناك فيما مر من أقوال الحاتمي أيضا ، التلاحم والتلاؤم بحيث إذا انفصل جزء من القصيدة أو اختلف في صحة التركيب عن باقي جسد القصيدة ، غادر بالجسم عاهة تتخوّن محاسنه ، وتعفي معالم جماله . على أن لا يخلو الكلام من تسلسل الأفكار بحيث تقتضي أوائله أواخره .

على أن مجمل الآراء التي عرضناها لنقادنا القدماء لم تأت من فراغ ، فلولا أنهم لاحظوا أن هناك عيبا ما في بناء القصيدة العربية يجب أن يُتدارك وأن يقوّم لما تحدثوا في هذا الموضوع . لقد لاحظوا الانتقال المفاجئ من غرض إلى آخر بعبارة « دع ذا » وما شاكلها ، ولاحظوا تفكك أجزاء القصيدة وعدم تلاحمها ، فظهرت دعوتان ، إحداهما تدعو إلى حسن التصرف في الانتقال وربط هذه الأجزاء ، بحيث لا يكون بينها تنافر ، مع محاولة الحفاظ على منهج القصيدة العربية المتعارف عليه . والثانية تحمل في طياتها ثورة على هذا المنهج التقليدي فتدعو إلى تحقيق الوحدة الموضوعية عن طريق تلاحم أجزائها ووحدة موضوعها وتدعو الشعراء إلى الدخول في أغراضهم مباشرة منذ البيت الأول ولو أدى ذلك إلى هدم ذلك المنهج التقليدي في بناء القصيدة القديمة .

ومما لا شك فيه أن عمل الشاعر على تحقيق هذه الوحدة يعني أن تتخلص القصيدة العربية من تعدد موضوعاتها ، ومن المطالع والابتداءات التي لا تناسب الغرض المراد منها ، وقد لا تحتاج حينئذ إلى أنواع الانتقال من غرض إلى غيره ، تلك الأنواع التي شغل النقاد أنفسهم بها من استطراد وخروج وتخلّص ، لأن القصيدة ذاتها سوف تخلص من كل ما هو خارج عن غرضها من حشو الكلام وتداخل الأغراض وتشتت الأفكار واختلاف المشاعر النفسية .

ومع ذلك نجد من بين النقاد المعاصرين من يحاول سلب القدماء كل فضيلة ، فيدعي أن خليل مطران أول من نبّه إلى أنه لم يجد في الشعر العربي « ارتباطاً بين المعاني التي تتضمنها القصيدة ، ولا تلاحما بين أجزائها » .(٣١) كما يرى أن العقاد كان أوضح منهجا من مطران وأكثر عمقا في دعواته إلى الوحدة العضوية في القصيدة .(٣٢) إذ يقول : القصيدة « ينبغي أن تكون عملاً فنياً تاماً ، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر

متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت البنية ، أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها ، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته .(٣٣)

فهل حقاً أن « مطران » كان أول من لاحظ تلك الملاحظة في الشعر العربي القديم ؟! وأنه والعقاد قد جاءا بشيء لم يألفه النقد العربي القديم ــ بغض النظر عن النتائج ــ ؟! وهل من الجدّة والحداثة تشبيه القصيدة بالتمثال في حين شبهها الناقد القديم بالجسد الحيّ ؟! وإنما كرر العقاد أقوالهم .

ونحن لا نستبعد أبداً أن يكون العقاد قد اطلع على رأي الحاتمي في وحدة القصيدة في أحد المراجع .

على أن فيما تقدم رداً على تساؤلاتنا السابقة ، ونقضاً لادعاء الدكتور هلال من أساسه ، ونحن لا نرى في مطران والعقاد ــ على جلال قدرهما في عالم الأدب والنقد ــ غير مجددين لدعوات أطلقها بعض النقاد القدماء وفي طليعتهم الحاتمي منذ أكثر من ألف سنة .

ولكن الشيء المؤسف حقاً أن تخفق تلك الدعوات القديمة فلا تحقق الغاية المرجوّة منها ، ولا نرى شيئاً ذا قيمة من آثارها في النتاج الشعري الكثير الذي وصل إلينا ، ولو شاء الله واستجاب الشعراء لتلك الآراء لتغيرت أحكام كثيرة حول شعرنا العربي القديم .

أما لماذا أخفق النقاد القدماء في خلق قصيدة جديدة تتحقق فيها الوحدة الفنية ؟ فإننا نعتقد أن لذلك أسبابا ؛ منها طبيعة الشعر العربي نفسه ، وهو في أغلبه شعر غنائي ، يتكون من مجموعة من العواطف ، لسنا ندري أيها كان أقرب إلى خلد الشاعر .

ثم الذوق الأدبي العام الذي كان سائداً آنذاك ، ذلك الذوق الذي كان يبحث عن الوحدة داخل البيت الواحد ، ويجد فيها لذته ومتعته ، بحيث إذا جاء في القصيدة بيتان بينهما صلة ما ، عدّوا ذلك عيبا ، وتفننوا في اختراع الألقاب لهذا العيب ، فمنهم من سماه « المبتور » ومنهم من سماه « التضمين » ومنهم من سمى القصيدة التي لا تستهل بالنسيب « البتراء » كابن رشيق الذي يقول : « وإذا تناول الشاعر قصيدته دون أن يجعل لها بسطاً في النسيب فالقصيدة بتراء ، كالخطبة البتراء » .(٣٤)

وخاتمة القول في هذا الموضوع ، موضوع « الوحدة في العمل الشعري » أن دعوات النقاد القدماء ـ وفي طليعتهم الحاتمي ـ لم تحقق هدفها ، وإذا نظرنا إلى القصيدة العربية القديمة فسنجد أنها تكاد تكون خالية من هذه الوحدة ، وأنها لا تعدو أن تكون مجرّد مجموعة من القصائد القصار يجمعها وزن واحد ، وقافية واحدة ، وذلك لتباعد أفكار القصيدة الواحدة بعضها عن بعض .

أما إذا كانت جميع أفكار القصيدة متقاربة متجانسة ، ومتعاضدة في خدمة الفكرة الرئيسة ، كما هو الحال في بعض القصائد الغزلية ، فقد نقول إن فيها « وحدة فنية » مع أن وجود مثل هذه القصائد القليلة لا يسمح بإطلاق هذه السمة على الشعر العربي القديم ، على الرغم من الجهود التي بذلها بعض النقاد القدماء ، أمثال أبي علي الحاتمي .

● ● ●

الحواشي

(١) أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي ، واحد من أعلام البلاغة والنقد في القرن الرابع الهجري ، له العديد من المؤلفات أشهرها : حلية المحاضرة ، والرسالة الموضحة .

(٢) انظر : نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ص ٢٢٢ .

(٣) انظر : الصناعتين ص ٣٧ .

(٤) انظر : معجم البلاغة ٢/٥٥٥ .

(٥) انظر : الشعر والشعراء ١/٥٧ .

(٦) انظر : البيان والتبيين ١/٦٧ .

(٧) انظر : الرسالة الموضحة ص ٦٧ .

(٨) انظر :حلية المحاضرة ١/٢٠٦ .

(٩) انظر : المصدر السابق ١/٢٠٨ .

(١٠) انظر : فن الشعر ص ٦٥ .

(١١) انظر : حلية المحاضرة ١/٢١٥ .

(١٢) انظر : المصدر السابق ١/٢١٦ .

(١٣) انظر : عيار الشعر ص ١٢ .

(١٤) انظر : المصدر السابق ص ١٣١ .

(١٥) انظر : فن الشعر ص ٢٦ .

(١٦) انظر : المصدر السابق ص ٦٥ .

(١٧) انظر : حلية المحاضرة ١/٢١٥ وما بعدها .

(١٨) انظر : المصدر السابق ١/٢١٧ .

(١٩) انظر : العمـدة ١/٢٦١ .

(٢٠) انظر : التيّارات المعاصرة في النقد الأدبي ص ٤٣٣ .

(٢١) انظر مثلا : النقد الأدبي الحديث ص ٣٩٤ .
(٢٢) انظر : دراسات في نقد الأدب الحديث ومذاهبه ص ٩٣ .
(٢٣) انظر : دراسات في النقد الأدبي ص ٩٤ .
(٢٤) انظر : النقد الأدبي الحديث ص ٢٠٩ .
(٢٥) المعروف أن هذا المصطلح لم يرد عن أحد من القدماء .
(٢٦) انظر : النقد الأدبي الحديث ص ٢١١ .
(٢٧) انظر : المصدر السابق ص ٣٩٦ .
(٢٨) انظر : المصدر السابق ص ٣٩٤ .
(٢٩) انظر : حلية المحاضرة ٢١٦/١ .
(٣٠) انظر : الرسالة الموضحة ص ٦٧ .
(٣١) انظر : النقد الأدبي الحديث ص ٤٠٢ .
(٣٢) انظر : المصدر السابق ص ٤٠٣ .
(٣٣) انظر : الديوان في النقد والأدب ص ٣٧ ، وانظر العقاد وقضية الشعر ص ٦٢ .
(٣٤) انظر : العمدة ٢٣١/١ .

● المصادر والمراجع ●

١ ـ البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط ٤ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، بدون تاريخ .
٢ ـ التيارات المعاصرة في النقد الأدبي ، للدكتور بدوي طبانة ، ط ٢ ـ ١٣٩٠ هـ .
٣ ـ حلية المحاضرة ، لأبي علي الحاتمي ، تحقيق د. جعفر الكتاني ، دار الرشيد ـ بغداد ١٩٧٩ م .
٤ ـ دراسات في النقد الأدبي ، للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، ط ١ ، مطبعة دار الطباعة المحمدية بالأزهر ، بدون تاريخ .
٥ ـ دراسات في نقد الأدب الحديث ومذاهبه ، للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، الحلقة الثانية ، مطبعة دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة ، بدون تاريخ .
٦ ـ الديوان في النقد والأدب ، للعقاد والمازني ، ط ٣ ، دار الشعب بالقاهرة ، بدون تاريخ .
٧ ـ الرسالة الموضحة : لأبي علي الحاتمي ، تحقيق د. محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .
٨ ـ الشعر والشعراء : لابن قتيبة ، نشر دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ .
٩ ـ الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، طبعة محمد علي صبيح بالأزهر ، بدون تاريخ .
١٠ ـ العقاد وقضية الشعر ، لمجموعة من المؤلفين ، الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة . ١٩٧٩ م .
١١ ـ العمدة ، لابن رشيق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٤ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٢ م .
١٢ ـ عيار الشعر ، لابن طباطبا ، تحقيق عباس عبد الستار ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٢ هـ .
١٣ ـ فن الشعر ، لأرسطو ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، ط ٢ ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣ م .
١٤ ـ معجم البلاغة العربية ، للدكتور بدوي طبانة ، نشر دار العلوم ، الرياض ١٤٠٢ هـ .
١٥ ـ النقد الأدبي الحديث ، للدكتور محمد غنيمي هلال ، دار الثقافة ودار العودة ، بيروت ١٣٧٣ هـ .
١٦ ـ نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، بدون تاريخ .